﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾ [المائدة: 19]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وَغْـطُ اليـهـودِ والنَّصارى بَعْدَ إبطالِ زَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ أَبْناءُ اللهِ وأَحِباؤُهُ

لَمَّا دُحِضَتْ حُجَّةُ اليهود والنَّصارى، ووَضُحَتْ أكذوبتهم، اقتضى ذَلِكَ الالتفاتَ إلى وَعظِهِمْ على وجه الامتنان عليهم، وإبطال ما عساهم يظنُّونَه حُجّةً، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[1]، مكرِّرًا مَوعِظَتَهُمْ ودعوتَهم بعد أن بَيّن لهم فسادَ عقائدهم وغُرورَ أنفسهم، بيانًا لا يَدَعُ لِلمُنصِفِ فرصةً للتمسُّك بتلك الضَّلالات، كَمَا وَعَظَهُمْ ودعَاهُم آنفاً بِمِثلِ هذا عَقِبَ بَيانِ نَقضِهِم المَواثيقَ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتۡرَةٖ﴾: أي سكون، ويدور معنى الفَتْرَة على الانكسارِ والضَّعفِ، يقالُ فَتَرَ يَفْتُرُ ويَفْتِرُ فُتُوراً وفُتاراً: سَكَنَ بعدَ حِدَّةٍ، ولانَ بعدَ شِدَّةٍ، وضعف بعد قوة، وأصل الفُتور: الضعفُ والسّكونُ، يقال: فَتَرَ الماءُ؛ أي: سَكَنَ حَرُّهُ فهو فاتِرٌ، وفَتر عَزْمُ فلان: إذا ضَعُفَ، ومعنى ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ على حِين انقطاعٍ من الإرسالِ والوَحْيِ[3].

2) ﴿بَشِيرٖ﴾: البشيرُ هو المُبشِّر بخيرٍ أو شرٍّ، والبِشَارَةُ: مَا بُشِّرتَ بِهِ، وإذا أطلقت فالبشارة بالخير والنذارة بغيره، يقال بَشَّرْتُه فأَبْشَرَ وبَشَرَ وتَبَشَّرَ، والبَشيرُ: حسن الوجه الجميلُ، والبِشْرُ في الوَجهِ: الطَّلاَقَةُ والفَرَحُ. وأصلُ البُشرى: ظهورُ الشَّيءِ مع حُسنٍ وجمالٍ،

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/69.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/157.

(3) الخليل، العَيْن، الجَوْهَريّ، الصِّحاح، والرَّاغِب، المُفْردات، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (فتر)، وابن عزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 360، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 149.

ومعنى البشير هنا: المُبَشِّرُ من أطاع اللّه وآمنَ به وبرسوله،، بعظيم ثوابه في آخرته[1].

3) ﴿نَذِيرٌ﴾: بِمَعْنى مُنْذِرًا؛ أَي: مُحذِّرًا، والإنذار، الإبلاغُ والإعذارُ والإعْلَامُ، يُقَالُ: أَنْذَرْتُهُ أُنْذِرُهُ إِنْذَاراً، إِذَا أعلمتُه، وفلان مُنْذِرٌ ونَذِيرٌ؛ أَي: مُعلِمٌ ومخوِّف ومحذِّر، وأصلُ النِّذارةِ: التخويفُ، ومعنى النَّذيرُ هنا: المُنذرُ من عصى اللّه وكذّب رسولَه ﷺ، بما لا قِبَلَ له به من أليم العقابِ وشديدِ العذاب[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بشارةُ أهلِ الكتابِ ونَذَارَتُهم ببعثة النَّبيِّ ﷺ

يا أَهْلَ الكتاب من اليهود والنَّصارى، قد جاءكم رسولُنا مُحمَّد ﷺ يُظهِرُ لكم الحقَّ والهُدى بعد مُدَّة انقطاع من الرُّسُلِ؛ لئلَّا تقولوا مُعتَذِرينَ: ما جاءنا رسول يُبَشِّرُنا بثواب اللّه، ويُنْذِرُنا عقابَه، فقد جاءكم محمَّد ﷺ مُبَشِّرًا بثوابه ومُنْذِرًا عقابه، واللّه هو القادرُ على كلِّ أَمْرٍ؛ ومنه: إنزالُ الرِّسالات[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تِكْرارِ الخِطابِ بِطَريقِ الإلْتِفاتِ:

التَّلطُّف في دعوتهم وتَنْشيطُهُمْ لإجابة الدَّعوة

في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: تَكريرٌ للخِطابِ بطريق الالتِفاتِ من الغَيْبَةِ إلى الخِطابِ، وفيه لُطْفٌ في الدَّعوة، وتنزيل للخطابِ مَنزِلَةَ التَّأكيدِ لِجُملَةِ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ﴾ [المَائِدَة: 15][4]، وأيضًا في تكريرِ

(1) الخليل، العَينْ، والأَزْهَريّ، تَهْذيبُ اللُّغَة، وابْنُ عَبَّادٍ، المُحيط، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة، والجَوْهَريّ، الصِّحاح، والرَّاغِب، المُفْردات: (بشر)، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 69، وابن جرير، جامع البيان: 10/158.

(2) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (ذرن)، والرَّاغِب، المُفْردات، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة، وابْنُ الأَثير، النِّهايَة: (نذر)، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 232، وابن عزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 463، وابن جرير، جامع البيان: 10/158.

(3) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَب، ص: 148، ونُخْبَةٌ مِنْ أساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 111، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَر، ص: 111.

(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/274، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/158.

الخطاب بلا عاطف بعد قوله تعالى ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: 15] تنشيطٌ لهم بلذّةِ المخاطبةِ، وكأنَّ الخطابَين في وقتٍ واحدٍ وفي أمرٍ واحدٍ يجمعهما، وفيه اهتمامٌ بأمر مجيءِ الرَّسُولِ عَلَيهِ الصَّلاةُ و السَّلام[1].

سِرُّ ندائهم بِقولِه ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

بَـيـانُ شَـرَفِ الانـتـسـابِ إلى الـكـتـابِ وقُـبْـحِ مُخالفته وتَـرْكِ ما فيه

في نِدائِهِمْ بـ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تَشْريفٌ لهم بإضافتهم للكتاب، وبَعْثٌ لهم على قبولِ ما جاء به رسولُ اللّٰه مُحَمَّدٌ ﷺ لأنَّه جاء بكتابٍ وهُم أَهْلُ الكتاب، واحتجاجٌ عليهم بأنَّ الإيمانَ بالكتاب الّذي عِندَهُمْ يَقْتضي الإيمانَ بالكتابِ الّذي جاء به؛ لأنَّه من جِنْسِه[2]، كما أنَّ في إيرادهم بعنوان أهليَّة الكتاب تشنيعًا عليهم أيضًا، إذْ يَقبحُ بمن كان أهلًا للكتاب وتشرَّف بالانتساب إليه أن يخالِفَه، فإنَّ أهليَّة الكتاب من مُوجِباتِ مُراعاتِهِ والعملِ بمقتضاه وبيان ما فيه من الأحكام[3]، فتكون إضافَتُهُمْ إلى الكتاب على وجه التَّعيير أيضًا، والمعنى: أنتم أهلُ الكتابِ، فَلِمَ لا تعملون بكتابكم؟ كقول القائل: يا عاقلُ لمَ لا تَفْعَلُ كذا وكذا، فذِكْرُ العقل على معنى التَّعييرِ؛ أَي: إنَّكَ لا تَعمَلُ عَمَلَ العُقَلاءِ[4].

فائدةُ إضافة لَفْظِ الرَّسولِ إلى نون العَظَمَةِ:

تَـعْـظـيـمُ قَـدْرِ النَّبيِّ ﷺ وبيانُ شمولِ رِسالَتِهِ

فالتَّعبيرُ عَنْهُ بذلك مع الإضافة إلى ضمير العَظَمَةِ للتَّشريفِ والإيذان بِوُجوب اتِّباعه[5] ﷺ، فـ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾؛ أي: الّذي عَظَمَتُهُ من عَظَمَتِنَا، فتعظيمُهُ وإجلالُه واجبٌ لِذَلِكَ[6]. وفيه رَدٌّ

(1) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/431.
(2) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 327.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/268.
(4) السَّمَرْقَنديّ، بَحْرُ العلوم: 1/380.
(5) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/268.
(6) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/69.

أكثرُ صراحةً من الخِطابِ السَّابِقِ على أَهْلِ الكِتَاب في قَولِهِم إنَّ مُحَمَّدًا ﷺ مبعوثٌ إلى العرب خاصَّة[1].

المتشابه اللَّفظي:

جاء قوله تعالى في الآية 15 من هذه السّورة ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: 15]، وكُرِّرَ صدر الآية ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾ في هذه الآية، فالنَّظمُ الكريمُ ذَكَرَ الرَّسُولَ ﷺ هُنَا بِوَصفِ مَجيئِهِ على فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ؛ لِيُذَكِّرَهُمْ بِأَنَّ كُتُبَهُمْ مُصَرِّحَةٌ بِمَجِيءِ رَسُولٍ عَقِبَ رُسُلِهِم، ولِيُرِيَهُمْ أَنَّ مَجِيئَهُ لَم يَكُنْ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ؛ إِذْ كَانُوا يَجِيئُونَ عَلَى فِتَرٍ بَينَهُم، وذُكِرَ الرَّسُولُ هُنَالِكَ بِوَصفِ تَبيينِهِ مَا يُخفُونَهُ مِنَ الكِتَابِ؛ لِأَنَّ مَا ذُكِرَ قَبلَ المَوعِظَةِ هُنَا قَد دَلَّ عَلَى مُسَاوَاةِ الرُّسُلِ في البَشَرِيَّةِ، ومُسَاوَاةِ الأُمَمِ في الحَاجَةِ إِلَى الرِّسَالَةِ، ومَا ذُكِرَ قَبلَ المَوعِظَةِ هُنَالِكَ إِنَّمَا كَانَ إِنبَاءً بِأَسرَارِ كُتُبِهِم، ومَا يُخْفُونَ عِلْمَهُ عَنِ النَّاسِ لِمَا فِيهِ مِنْ مَسَاوِيهِم وسُوءِ سُمعَتِهِم،[2].

سِرُّ استعارةِ المجيءِ لِلأَمرِ بالتَّبليغِ:

بيانُ منزلةِ الدِّين والأمر بتَبْلِيغِهِ

المَجِيءُ هُنا مُسْتَعَارٌ لِأَمرِ الرَّسُولِ بِتَبلِيغِ الدِّينِ، فكَمَا سُمِّيَ الرَّسُولُ رَسُولًا سُمِّيَ تَبلِيغُهُ مَجِيئًا تَشْبِيهًا بِمَجِيءِ المُرسَلِ مِنْ أَحَدٍ إِلَى آخَرَ[3].

دلالة جملة الحال في قوله تعالى ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾:

لمّا كان الحال يأتي مقترنًا بصاحبه دلَّ الكلام على أنَّ البيان المذكور كان مقترنًا بمجيء رسول الله ﷺ لم ينفكَّ عنه، ليكونَ وصفًا لبيانِ هيئة الرَّسول في حالِ مجيئه مقترنًا به ﷺ والتّقدير: جاءكم رسولنا مبيّنًا لكم عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ[4].

(1) القونويّ، حاشيةُ القونويّ على البيضاوي: 7/426.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/158.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/158.
(4) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 3/70.

مناسبةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع ﴿يُبَيِّنُ﴾:

عُبِّرَ بالفعل المضارعِ للدلالةِ على استمرار التبيين للرّسول ﷺ وتجدّده حالًا فحالًا من غيرِ انقطاعٍ.

نكتة حَذْفِ المَفْعُولِ في قولِه تعالى ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾:

بـيـانُ شُـمـولِ البيان وتَجَدُّدِهِ

يحتمل الفعل المتعدّي ﴿يُبَيِّنُ﴾ أن يكون مفعولُه مقدّرًا أو غيرَ مقدَّر أو أن يكون منزَّلًا منزلة اللَّازم، فهذه ثلاثة أوجه:

الوجه الأوّل أن يكون المفعول مقدَّرًا، وفيه احتمالان: الأول أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ المَبَيَّنُ هُوَ الدِّينُ والشَّرَائِعُ، وإِنَّمَا حَسُنَ حَذفُهُ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَعلَمُ أَنَّ الرَّسُولَ إِنَّمَا أُرسِلَ لِبَيَانِ الشَّرَائِعِ، ثانيهما: أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ يُبَيِّنُ لَكُم مَا كُنْتُم تُخْفُونَ، وإِنَّمَا حَسُنَ حَذفُهُ لِتَقَدُّمِ ذِكرِهِ، والسياق يقوّي الاحتمالَ الأوّل؛ فإنَّ فتورَ الإرسال وانقطاع الوحي إنَّما يحوجُ إلى بيان الشَّرائع والأحكام لا إلى بيان ما كتموه.

الوجه الثّاني: أَنْ يكون على حذف المفعولِ، والمَعنَى: يُبَيِّنُ لَكُمُ البَيَانَ، وحَذْفُ المَفعُولِ أَكمَلُ؛ لِأَنَّه على هَذَا التَّقْدِيرِ يَصِيرُ أَعَمَّ فَائِدَةً، لتناوله كلَّ ما يبيّنه الرَّسول للنّاس[1].

الوجه الثَّالث: أن ينزَّل الفعل منزلةَ اللازم، والمعنى وصفُه وشأنُه هو البيان، يبذلُه لكم في كلِّ ما تحتاجون فيه من أمور الدِّين، ويقوّي هذا الوجهَ إيثارُ التّعبير بالمُضَارِع المشعر بأنَّ التَّبيين يَتَجَدَّدُ بحسب المصالح والوقائع والحال[2]، فالبيانُ لا ينقطع أصلًا بحفظ كتابه، فكُلَّمَا دَرَسَتْ سُنَّةٌ، فَتحَ الله تعالى بعالِمٍ يَرُدُّ النَّاس إليها بالكتاب العزيز المعجز القائم أبدًا[3].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/330، وأبو السعود: إرشاد العَقْل السّليم: 3/21.
(2) القونويّ، حاشيةُ القونويّ على البيضاوي: 7/431.
(3) الشِّربينيّ، السِّراجُ المُنير: 1/365، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/274.

دلالةُ تقديم ذِكْرِ البيان على ما بَعْدَهُ:

بيان عِظَمِ شأن الدَّعوة وعِظَمِ مَنْزِلَتِها

يحتمل أن يكون في الآية تَقديمٌ وتأخير، وتقدير الكَلام (قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا عَلَى فَتَرةٍ مِنَ الرُّسُلِ يُبَيِّنُ لَكُمْ)[1]، فقَدَّم ذِكرَ البيان للدَّلالة على أهمِّيته فذكر الوصف الأهمَّ والأسمى والمَقْصَدَ الأعظمَ لمجيءِ هذا الرَّسول الكريم عليه أفضل الصَّلاة وأَتَمُّ التَّسليم، ويحتمل أن يكون الكلامُ على الأصل من غير تقديم ولا تأخير، ليكون قوله﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ حالًا من فاعل ﴿يُبَيِّنُ﴾ أو من الضّمير في ﴿لَكُمۡ﴾، وقدَّم ما هو الأولى بالتّقديم كما تقدّم[2].

دلالةُ استعمالِ حرفِ الجَرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في الآيةِ:

بيانُ فوقيَّةِ الرِّسالَةِ وعُلُوِّها ورِفْعَةِ شَأْنِهَا

﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ لِلاستِعلَاءِ المَجَازِيِّ بِمَعنَى (بَعْدَ)؛ لِأَنَّ المُستَعلِيَ يَستَقِرُّ بَعْدَ اسْتِقْرَارِ مَا يَسْتَعلِي هُوَ فَوقَهُ، فشُبِّهَ اسْتِقرَارُهُ بَعدَهُ بِاسْتِعلَائِهِ عَلَيهِ، فاسْتُعِيرَ لَهُ الحَرفُ الدَّالُّ على الاستِعلَاءِ[3]، على سبيل الاستعارة التبعيّة في الحرفِ.

فالتَّعبير بِقَوْلِه ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ﴾ فيه مَعْنى فوقيَّةِ الرِّسالة على الفَتْرَةِ، وعُلُوِّها عليها كَعُلوِ البيانِ على الجهل، والنُّور على الظُّلْمَةِ، فمن الواجب عليهم أَنْ يُسارعوا إلى اتِّباع الرَّسول الّذي جاءهم بالحقِّ، وإلَّا كانوا ممَّن يَرْتَضي لنفسه الانحدارَ من الأعلى إلى الأدنى، ومن العلم إلى الجهل، ومن الهُدى إلى الضَّلالِ[4].

وعليه كان هذا البيانُ مُستَعليًا على وقْتِ مجيئه وما مضى قَبْلَهُ وما يأتي بعده ببقاء كتابه، محفوظًا لعموم دعوتِهِ وختامِهِ وتفرُّدِهِ، فلا نبيَّ بَعْدَهُ[5]، فبِهذا حازَ المعالي من كُلِّ وَجهٍ، ونالَ الكمالَ من كُلِّ جِهَةٍ.

(1) السَّمَرْقَنديّ، بَحْرُ العلوم: 1/380.
(2) السَّمَرْقَنديّ، بَحْرُ العلوم: 1/380، والعكبري، التبيان: 1/429.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/158.
(4) طَنْطاوي، الوَسيط: 4/100.
(5) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/70.

دلالة التنكير في قوله تعالى﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ﴾:

لفظ ﴿فَتۡرَةٖ﴾ متعلّقٌ - بجاءَكم - أي: (جاءكُم على حِينِ فتورٍ من الإرسال وانقطاعِ الوحي ومزيد الاحتياج إلى البيان)[1]؛ فلم يكن بعد عيسى عليه السلام إلّا رسولُ الله محمَّدٌ - ﷺ -؛ وفي الظَّرفيَّة مع تنوين ﴿فَتۡرَةٖ﴾ من التَّفخيم اللَّائق بمقام الامتنانِ عليهم بأنَّ الرَّسول قد بُعث إليهم عند كمالِ حاجتهم إليه؛ بسبب مُضيِّ زمانٍ طويلٍ بعد انقطاعِ الوحي ليَهُشُّوا إليه ويعُدُّوه أعظمَ نعمةٍ من الله تعالى، وفتحَ بابٍ إلى الرَّحمة، وتلزَمُهم الحجّةُ فلا يَعتلُّوا غداً بأنَّه لم يُرسَلْ إليهم من يُنبِّههم من غفلَتِهم[2].

سِرُّ الاستعارةِ في التَّعبيرِ عن الانقطاعِ بالفترة:

بيان الامتنان عليهم ببعثة النَّبي ﷺ لِشِدَّةِ حاجتهم إلى هُداه

الفَتْرَةُ أصلُها سُكون عن حدَّةٍ وليونةٌ بعدَ شدَّةٍ،[3]، فاستعارةُ لفظِ الفترةِ هُنا يُصَوِّرُ زمنَ انقطاعِ إرسالِ الأنبياء إلى الأمم، فشَبّهَ فقدَهم - بعدَ أن كانوا يأتون متعاقبين على أقوامِهم - وبُعْدَ العهدِ بهم ونسيانَ أخبارهم، وبلاءَ رسومهم وآثارهم، وانطماسَ معالمهم وأنوارهم، بشيءٍ كان يَغْلِي ويتتابع، ففَتَرَ وسَكَنَ، ولم يبقَ من وصفه المقصود منه إلّا أثرٌ خافٍ ورسْمٌ دارسٌ[4].

والمقصودُ أنَّ الله تعالى بَعَثَ رسولَه مُحمَّدًا ﷺ على فَترَةٍ من الرُّسُلِ، وطُمُوسٍ مِنَ السُّبُلِ، وتَغَيُّرِ الأديان، وكَثرَةِ عبادة الأوثان والنِّيران والصُّلبان، فكانت النِّعمةُ به أتمَّ النِّعَمِ، وأنّ الحاجةَ إليه أمر عَمَمٌ، فإنَّ الفساد كان قد عَمَّ جميع البلاد، والطُّغيان والجهل قد ظهرا في سائر العباد، إلّا قليلًا من المُتَمَسِّكينَ ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحبار اليهود وعُبَّاد النَّصارى والصَّابئين[5].

(1) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/274.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/22، والقونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/432.
(3) الزمخشري، أساس البلاغة: 2/4.
(4) الشِّرْبينيّ، السِّراجُ المُنير: 1/365، والرَّضِي، تلخيص البيان: 2/130.
(5) ابْنُ كَثِير، تَفْسيرُ ابْنِ كَثِيرٍ: 3/70، 71.

دلالة التَّعليلِ في قوله ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾:

قَـطْـعُ معاذير أهل الكتاب في الدُّنيا والآخرة

﴿أَن تَقُولُواْ﴾: تَعليلٌ لِقَوْلِه: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ﴾؛ لِبَيَانِ بَعضِ الحِكَمِ مِنْ بَعثَةِ الرَّسُولِ ﷺ، منها قَطعُ مَعذِرَةِ أَهلِ الكِتَابِ عِندَ مُؤَاخَذَتِهم في الآخِرَةِ، أَو تَقْرِيعُهُمْ في الدُّنيَا عَلَى مَا غَيَّرُوا مِنْ شَرَائِعِهِم؛ لِئَلَّا يَكُونَ مِنْ مَعَاذِيرِهِم أَنَّهُمُ اعتَادُوا تَعاقُبَ الرُّسُل وإرشادَهم وتَجديدَ الدِّيَانَة، فَلَعَلَّهُمْ يعتذرون بِأَنَّهُمْ لَمَّا مَضَت عَلَيهِمْ فَترَةٌ بِدُونِ إِرسَالِ رَسُولٍ لَم يَتَّجِه عَلَيهِم مَلَامٌ فِيمَا أَهمَلُوا مِنْ شَرعِهِم، وأَنَّهُمْ لَو جَاءَهُمْ رَسُولٌ لَاهتَدَوا، وقد كان اختلط في تلك الفترة الحقُّ بالباطل[1].

فلَيسَ المُرَادُ من التَّعليل أَنْ يَقُولُوا: مَا جَاءَنَا رَسُولٌ إِلَينَا أَصلًا؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَدَّعُونَ ذَلِكَ، وكَيفَ وقَد جَاءَهُم مُوسَى وعِيسَى عليهما السلام، وبيانه أنّه لمّا كان المعنى في الآية هو انتفاء أن يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير لا إثباته، كما هو ظاهرٌ، اقتضى السِّياق أن يكون الكلامُ بتقدير (كراهة أن يقولوا ماجاءنا من بشير و لا نذير) أو بتقدير (أن لا يقولوا) أو أن تكون ﴿أَن﴾ بمعنى (لئلَّا) والتّقدير (لئلا تقولوا ما جاءنا من بشيرٍ و لا نذير)، ويحتمل أن يكون المعنى لإثباتِ قولِهم في ما مضى لا لانتفائه، بتَقدِيرِ لَامِ التَّعلِيلِ قَبلَ ﴿أَن﴾ وتجريدها من الزّمن المستقبل، بمعنى (لأن تقولوا) أي لقولِكم، وهُوَ تَقْدِيرٌ يَقْتَضِيهِ المَعنَى[2].

نُكْتَةُ مجيء حرف الجَرِّ ﴿مِنۢ﴾ في قوله ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ﴾:

تـأكـيـدُ النَّـفي والمـبـالـغـة فيه لتأصُّلِ الإنكار في نفوسهم

﴿مِنۢ﴾ حرف جرٍّ زائد دخلَ على الاسم النّكرة في سياق النّفي؛ ليفيدَ النّصَّ على العمومِ المبالغةَ في تأكيدِ النّفي وتقريرِه، والمعنى ما جاءنا أيُّ بشيرٍ يُبشرنا ولا نذيرٍ ينذرنا؛ لنرغبَ فنعملَ

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/330، والنَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/571، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/96، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/158، 159.

(2) البَغَويّ، معالم التنزيل: 2/33، والزمخشري، الكشاف: 1/619، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/159.

بما يسعدنا، ونتركَ المنهيَّات فنفوزَ[1]، وأفاد التَنكيرُ في لفظي ﴿بَشِيرٍ﴾، و﴿نَذِيرٌ﴾ التَّقليلَ[2].

دلالةُ الفاءِ الفصيحةِ في قوله ﴿فَقَدْ جَآءَكُم﴾:

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ هي الفصيحة تُفْصِحُ عن محذوفٍ ويكونُ ما بعدها عِلَّةً له، فإمّا أن يكونَ التَّقدير: لا تعتذروا عَن كفركم وتفريطكم في أحكام الدِّين ومتابعة الكتَاب المبين ﴿فَقَدْ جَآءَكُم﴾، والمعنى لا تقدروا على الاعتذار ولا يُمكِنُكُمْ ذلك[3]، وإما أن يكون التَّقدير: لإِنْ قُلْتُم ذلك فقَدْ بطل قولكم؛ إذ قد جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ[4].

الإبـــانـــةُ عـن وجـــه بُـطـلان دعـــواهـــم على فَرْضِ قولهم لها واحتجاجهم بِهَا

دلالةُ ذِكْرِ الوَصفِ بالبِشارَةِ والنِّذارَةِ بدلَ الذَّات:

ذكر الوصفين (البشير والنذير) في ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾؛ وفي ما قَبْلَهُ قال: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ [المائدة: 15]؛ إذ المُرَادُ هنا الوصفُ بالبشارةِ والنّذارةِ لا ذاتُه[5]، ولعظم شأن البشارة والنِّذارة عبَّر عنهما بصيغة (فعيل) التي تأتي للمبالغةِ، وجيء بالتَّنوين أيضًا في ﴿بَشِيرٌ﴾ و﴿وَنَذِيرٌ﴾ للتَّفخيم؛ أي: فقد جاءَكم بشيرٌ أيُّ بشيرٍ، ونذيرٌ أيُّ نذيرٍ[6].

بـــيـــانُ شـــأن البِشارَةِ والنِّذارة واختصاصِهِمَا في مَوضِعِ الوعدِ والوعيدِ

سِرُّ تقديمِ البِشارَةِ على النِّذارة:

وقدَّم البِشارة على النِّذارة في قوله ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾؛ لأنَّ القاعدةَ في محاولةِ الأمور الصَّعبةِ أن يبدأ فيها بالتلطّف والتيسير، ليكون أدعى للقبول،[7] وإشعارًا بأنَّ الأصلَ في رسالته

بيانُ أنَّ الأصلَ في دعوة الرُّسول تنشيطُ المَدْعوّين للانقياد والقبول

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/71.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/22.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/432.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/160.
(5) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/432.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/22.
(7) ابْنُ عَرَفَة، تَفْسيرُ ابْنِ عَرَفَة: 1/165.

ﷺ التَّبشير؛ فقد أرسله اللّه تعالى رحمة للعالمين[1]؛ ولأنَّ في التَّبشيرِ تَنْشيطًا قدَّمَهُ على الإنذار[2].

وقَدْ تقدَّم التَّبشير على الإنذار في مواضع كثيرةٍ من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ [البقرة: 119]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سبأ: 28]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾ [فاطر: 24]

ففي الغالبِ الأعمِّ تكون البشارةُ مقدَّمةً على النِّذارة؛ لأنَّ التَّبشير هو الأصل؛ ولأنَّ النَّفس جُبِلَتْ على حُبِّ ما يُفرِح ويَسُرُّ، وكراهيَّة ما فيه تخويف وإنذار.

وتقدَّمت النِّذارة على البِشارَةِ في مواضع أيضًا كقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: 188]، وقوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢﴾ [هود: 2]؛ لأنَّ المقامَ خطابٌ للمكذِّبين المشركين، فالنِّذارة أَعلَقُ بأحوالهم الّتي كانوا عليها من البشارة[3]، وفي ذِكْرِ بعض أحوالهم من التَّكذيب والجحود والاستهزاء بالرَّسول تَعليلًا لتقديم الإنذار على التَّبشير؛ لأنَّ في ذلك تخويفًا لهم.

دلالةُ الختمِ والتَّذييل بذكر القدرة:

بيانُ القُدرةِ المطلقةِ حالَ الإرسالِ والإمساك

قوله ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾: تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبْلَه، ومُناسبتُه هُنا أنَّ حصولَ الفترة يُوجِبُ احتياج الخَلق إلى بعثة الرُّسل، واللّه تعالى قادرٌ على كلِّ شيءٍ، فكان قادرًا على البعثة، ولمَّا كان الخلق مُحتاجين إلى بعثة الرسل، وكان الرَّحيم الكريم قادرًا على البعثة تفضَّل بكرمِهِ ورحمته بإرسالِ الرُّسُل إليهم[4]، فَيَقْدِرُ على إرسال الرسل تَتْرى كما فعل بين مُوسى وعيسى – عليهما السلام –؛ حيث كان بينهما ألفٌ وسبعُمائة سنة وألفُ نبيٍّ، وعلى إرسالهم بعد فترة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 22/53.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/22.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 9/209.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/330.

كما فعل بينَ عيسَى ومحمَّدٍ – عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ –؛ حيثُ كان بينهما ستُمائة سنةٍ[1].

كما أنَّ في الختم بوصفِ القُدرة، وإتباعِهِ تَذْكيرهُمْ ما صاروا إليه من العِزِّ بالنبوّة والملك بعد ما كانوا فيه من الذلِّ بالعبودية والجهل، في الآية الّتي تليها، إشارةً إلى أنَّ إنكارَهم لِأَنْ يكون من ولدِ إسماعيل عليه السلام نبيٌّ، يَلْزَمُ منه إنكارُهُم لِلقُدرَة[2].

كما أنَّ ختمَ الآيةِ بالكلام عن القُدرة ممّا يُناسب المقامَ، ووَجهُهُ أنَّ مخالفة أهل الكتاب للرَّسول ﷺ تعني أنَّهم مُعَرَّضُونَ للعقوبة، والله غَيرُ عاجزٍ عن عقوبتهم لِكَمالِ قُدرَتِه[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المجيء والإتْيان:

المَجيءُ إتيانٌ مُحَقَّقٌ

الإتْيَانُ: مجيءٌ بِسُهُولَةٍ، وهُوَ بِدايَةُ المَجِيءِ[4]، فإذَا اكتَمَلَ وبُلِغَ مَقْصِدُهُ من مَكَانٍ أَو زَمَانٍ أَوْ شَخصٍ أَصبَحَ مَجيئًا، فالمَجِيءُ هُوَ إتيَانٌ مُحقَّقٌ بَعيدٌ عَن عَوَامِلِ النَّقْصِ، قَالَ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ﴾ [الأعراف: 129]، فالإتيَانُ بِدَايَةُ المَجِيءِ زَمَانِيًّا أَو مَكَانِيًّا، وقد لَا يَتِمُّ فلَا يَكُونُ مَجيئًا، أَمَّا المَجِيءُ فهُوَ إتيَانٌ مُحَقَّقٌ قَرِيبٌ زَمَانِيًّا وَمَكَانِيًّا[5].

أَمَّا في بَابِ الأَسمَاءِ والصِّفَاتِ فمَنْ تَكَلَّمَ عَن صِفَةِ المَجِيءِ والإتْيَانِ مِنْ مُحَقِّقِي أَهلِ السُّنَّةِ[6]، يَجعَلُهُمَا بِمَعنًى وَاحِدٍ، ويُسْتَدَلُّ لَهُمَا بِالأَدِلَّةِ نَفسِهَا دُونَ تَفرِيقٍ؛ فالفَرقُ السَّابِقُ غَيرُ وَارِدٍ هُنَا في بَابِ الصِّفَاتِ، فقَولُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: 158] كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفَجْر: 22].

(1) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/22.
(2) القاسِمي، مَحاسِنُ التَّأْويل: 4/96.
(3) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: 1/253.
(4) الرَّاغِب، المُفْردات، ص: 283.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 1/264.
(6) ابْنُ تَيْميَّة، مَجْموعُ الفَتاوى: 5/458، وابْنُ القَيِّم، الصَّواعِقُ المُرْسَلَة: 3/1099.

التَّخويف والإنذار:

التَّخويف عامٌّ، والإنذارُ تخويفٌ مع إعلام بما يُحْذَرُ ووعيدٍ به

الإنذَار: تخويفٌ مع إِعْلَام مَوضِع المخافةِ، من قَوْلك: نذرتُ بالشَّيْء، إِذا عَلمته فاستعددت لَهُ، ولا يكاد يكون إلّا في تخويفٍ يسعُ زمانه الاحتراز[1]؛ فإِذا خوّفَ الإِنسَانُ غيرَه وأعلمَه حَال مَا يخوّفُه بِهِ فقد أنذرَه، وإِن لم يُعلمهُ ذَلِك لم يقل أنذره، وذِكرُ الوَعيدِ مع الإِنْذَار وَاجِبٌ[2]، والإنذارُ إِحسَانٌ من المُنْذِرِ، وكلما كَانَت المخافة أَشدَّ كَانَت النِّعْمَة بالإنذار أعظمَ؛ ولِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ أعظمَ النَّاس مِنَّةً بإنذاره لَهُم عِقَاب اللّه تَعَالَى[3]، فالإنذار خاصٌّ من هذه الوجوه والتَّخويف أَعَمُّ.

(1) المَنَاويّ، التَّوقيف، ص: 64.
(2) الكَفَويّ، الكُلِّيات، ص: 201.
(3) العَسكَريّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 242.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 8 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-60-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 8 : سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-60-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»